الفصل الرابع

تطور مفهوم المنهج في الفكر الإسلامي والفكر الغربي

أهداف الفصل

1. تتبع تطور مفهوم المنهج ودلالاته في الفكر الإسلامي وفي الفكر الغربي.
2. توضيح العلاقة بين مفهوم المنهج في التراث الإسلامي وتطور مستوى العلم في المجال أو الموضوع العلمي.
3. ملاحظة ارتباط نشأة القواعد المنهجية بالعلوم الخادمة للنص الإسلامي.
4. بيان صور اجتماع دلالات النص وحقائق الواقع الطبيعية والاجتماعية في المنهجية الإسلامية.
5. ملاحظة صور الخلل في التأريخ لتطور المنهج في الفكر الغربي.
6. بيان موقع كل من أرسطو، وفرانسيس بيكون، ورينيه ديكارت في تطور مفهوم المنهج في الفكر الغربي.
7. تأكيد أن تطور مفهوم المنهج خضع لتطور الخبرة البشرية عبر الأجيال.
8. مقارنة ملامح خط التطور في مفهوم المنهج والممارسة المنهجية بين التراث الإسلامي والتراث الغربي.

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

يحاول هذا الفصل أن يعرض بصورة موجزة جداً تاريخ المنهج، مركزاً على ما يختصُّ بمصطلح المنهج، أو المصطلحات ذات الصلة المباشرة به، مع التنويه بما كان يمثّل محطات رئيسية من مراحل تطور المنهج. ومع أننا عرضنا التطور التاريخي لمفهوم المنهج في الفكر الإسلامي، مستقلاً عن تطوره في الفكر الغربي، فإننا رصدنا موقع المنهج في مراحل التقاطع بين الفكرين في تطورهما التاريخي.

ومع أن كلمتَي المنهاج والنهج كلمتان معروفتان في القرآن الكريم والحديث الشريف وفي لغة العرب، فإن كلمة منهج أصبحت أكثر استعمالاً في اللغة المعاصرة. صحيح أنَّ لكل كلمة من هذه الكلمات: منهاج ونهج ومنهج، مجالاً يفضَّلُ استعمالُها فيه دون غيرها، لكنَّ الموضوع الذي تشير إليه هذه الكلمات يكاد يكون موضوعاً واحداً. وهذا الموضوع يشير إلى أسلم الطرق التي يمكن اتباعها في التحقق والتثبت من العلم والمعرفة. وهو موضوع التفت المسلمون إلى أهميته في وقت مبكر من تاريخ الإسلام. وقد كان واضحاً لنا أن المنهج قد تلوَّن بألوان المدارس الفكرية التي عرفها التاريخ الإسلامي، سواءً أكانت مدارس فكرية إسلامية الأصول والنتائج، أم كانت مدارس اختلطت فيها الثقافة العامة للمجتمع الإسلامي مع توجهات فكرية وافدة من الفكر اليوناني الأوروبي أو الإشراقي الآسيوي.

أما في تاريخ الفكر الغربي، فإنّ الغربيين يفضلون التأريخ للمنهج ابتداءً من الفلسفة اليونانية، ثم يقفزون إلى تطورات عصر النهضة، وينتهون بالكلام عن أزمة المنهج في مقولات ما بعد الحداثة. ولكننا حرصنا حتى في التاريخ الغربي أن نتتبع المحطات الرئيسة في هذا التاريخ محاولين الاجتهاد في استكمال الحديث عن بعض المراحل التي يقفزون عنها، بما نرجحه من حصول حالات التفاعل والاقتراض الثقافي بين الشعوب والأمم.

أولاً: تطور مفهوم المنهج في الفكر الإسلامي

فقد طور المسلمون منهجية محددة للحصول على المعرفة، ففي حياة النبي صلى الله عليه وسلم كان الوحي ينزل على النبي فيبلغه للناس ويطلب من كتبة الوحي تدوينه وإبلاغه إلى الأمة. وكان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في إبلاغ الآيات أحياناً نوعاً من البيان والتوضيح والتحديد للنص القرآني. ولكنه كان يحرص على أن لا يختلط القرآن بغيره، وهي الحكمة التي يرى العلماء أنها كانت سبباً في منع النبي للمسلمين من تدوين الحديث كما كانوا يدوّنون القرآن.

المنهج في عهد الرسالة: الإبلاغ من النبيّ، والتلقي من الصحابة.

وهكذا كان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف المصدرين الأساسيين للمعرفة التي كانت تنظم حياة المجتمع المسلم، وهي كذلك المعرفة التي كانت محتوى لعمليات التعليم والتعلم في المجتمع الإسلامي الأول. وبطبيعة الحال لم تكن آراء جميع الصحابة بعد وفاة النبي متفقة في كل شيء. ولذلك كان إجماع الصحابة في قضية معينة يعد مصدراً ثالثاً للمعرفة الموثقة. وأعد العلماء عقولهم في الحالات التي لا يجدون فيها نصاً مباشراً من القرآن والسنة، لقياس هذه الحالات على مثيلاتها مما ورد في النص، وبذلك كان القياس مصدراً رابعاً للمعرفة الإسلامية. ومن الممكن أن ننظر إلى الإجماع والقياس بوصفهما حالتين من حالات الاجتهاد، فيكون الاجتهاد هو المصدر الثالث للمعرفة بعد القرآن والسنة.

المنهج في حياة الصحابة: مصادر تلقي الأحكام الشرعية، القرآن والسنة والاجتهاد.

هذه هي المصادر التي كانت تمثل المنهجية التي يحصل فيها المسلمون على معرفة الأحكام الشرعية على وجه الخصوص، ولذلك سماها العلماء مصادر التشريع، وأضافوا إليها أحياناً ما يتجاوز مجرد الاستنباط الشكلي (الذي يتم في القياس) بحيث يرتبط هذا الاستنباط بقيمة هذا العمل وروحه؛ مما سمّاه

العلماء بالاستحسان، أو يرتبط بالغرض الأساسي منه مما سموه بتحقيق المصالح المرسلة.

وقد شعر الجيل الأول من المسلمين أن القرآن الكريم وبيان النبي صلّى الله عليه وسلّم له، وتطبيقه، لهديه في فترة التنزيل، كانا كافيين لتنظيم شؤون حياتهم. لذلك كانت عمليات الإجماع والقياس والاستحسان وتوخي المقاصد والمصالح... إلخ بعد وفاة النبي صوراً من الاجتهاد في فهم دلالات القرآن الكريم وما عرفوه من السنة النبوية.

وقد اقتضت عملية تدوين العلوم الإسلامية وضبط نصوصها وطرق استخدام هذه النصوص تطوير مناهج محددة كان كثير منها جديداً تماماً على العقل البشري؛ فتطورت علوم الأصول المختلفة: أصول الفقه، وأصول التفسير، وأصول الحديث، وعلم الكلام. وقد مثّلت هذه العلوم الجديدة منهجية إسلامية بامتياز، لأنها كانت إنتاج العقل المسلم وعلى غير سابقة من علوم السابقين، ولأنها كانت منهجية هذا العقل في تصريف شؤون الواقع الإسلامي على أساس الشريعة الإسلامية. وليس ثمة شك في تسمية هذه المنهجية بالمنهجية الإسلامية.

مناهج تفصيلية في نشأة العلوم الاسلامية الأولى: أصول الفقه، أصول التفسير، أصول الحديث،... إلخ

لكن التأمل في المصدر الأساسي لتلك المعرفة الإسلامية (القرآن الكريم) يبين أن القرآن لم يكن يخاطب ذلك الجيل الأول من المسلمين في شأن إنشاء علومهم التي كانوا يحتاجون إليها وحسب، بل إنه لم يكن خطاباً للمسلمين فقط، ولكنه خطاب للنوع الإنساني، يوفر له مصدر الهداية في تنظيم شؤونه كافّة؛ خطاب للإنسان المؤمن وغير المؤمن، يحاوره ويجادله ويسرد عليه قصص الأمم السابقة، ويبشره وينذره، ويقيم الحجة عليه. وهو في كل ذلك يتناول شؤون حياته في جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويعالج خفايا نفسه وخطراتها، ويشير إلى ظواهر الكون الذي يعيش فيه مما خفي في عالم الأشياء

الدقيقة، وما عظم وجلّ من آفاق الكون وأقطار السموات والأرض. والقرآن في أساليبه المختلفة من الخطاب: القصة، والمثل، والحوار، والتساؤل، والترغيب، والترهيب، وغيرها، يستفز أدوات الإدراك والوعي في الإنسان ليستعملها مصادر للمعرفة، ويحمِّله في النهاية مسؤولية هذا الاستخدام ونتائجه.

وقد قاد هذا التأمل علماء المسلمين فيما بعد إلى إدراك شيء من دلالات تركيز القرآن على إخبار الناس وتوجيههم المباشر إلى ما يجب عليهم، حتى تتحقق مصالحهم في بعض جوانب الحياة، ويقودهم إلى رضوان الله في الآخرة. وهذه أوجه من المعرفة مصدرها آيات الوحي. كذلك قادهم هذا التأمل إلى إدراك شيء من دلالات تركيز القرآن على التأمل والتفكر والتدبر في الأنفس والآفاق، من أجل اكتشاف سنن الله النفسية والاجتماعية والكونية، ومن ثم وضع الأسس والقواعد والقوانين والتشريعات التي تعالج شؤون الحياة، لإقامة مجتمع الحق والعدل وبناء العمران وإنشاء الحضارة... وهذه أوجه من المعرفة مصدرها الكون بأشيائه وأحداثه وظواهره. ومثلما أن حياة الإنسان في هذه الدنيا هي حياة واحدة لا فصل فيها بين متطلبات الدنيا والآخرة، فكذلك كان تعامل الإنسان مع مصدري المعرفة: الوحي والكون، تعاملاً يقوم على التكامل.

> مناهج تفصيلية في نشأة العلوم الكونية، والعلوم الاجتماعية، والعلوم النفسية وعلاقتها بهدي القرآن من فهم الطبائع والوقائع.

وعملية التأمل في الحالتين تحتاج إلى إعمال الأدوات المتوفرة للإنسان، فلا يليق بالإنسان أن يهمل أدوات الإحساس والمشاهدة المباشرة، ودورها في استلام البيانات المسموعة بأداة السمع أو المرئية بأداة البصر، والتدقيق في هذه البيانات للتوثُّق من صدق وصفها للأشياء والأحداث وصفاً كمياً وكيفياً، يبين مقاديرها وحساباتها وأنواعها وأصنافها ويحدد درجات الشبه والاختلاف فيما بينها. ولا يتم هذا الإدراك إلا بإعمال الفؤاد، أو القلب، أو اللب، أو العقل، الذي يعطي لكل ذلك دلالاته ومعانيه. وعندما يجمع القرآن بين هذين النوعين من الأدوات: الحس والعقل في المسؤولية فإنَّه يوضح أنَّ السمع والبصر، بوصفهما

من أدوات الحس، والفؤاد، بوصفه أداة الفهم والإدراك، موضع للمسؤولية، فكأنما يؤكد الحاجة إليهما معاً، والحاجة إلى إعمالهما دائماً، وبصورة متكررة، فلا تقف عند الإحساس الشكلي العابر والتفكير السطحي السريع. لكأنما القرآن الكريم يطلب من الإنسان وهو يُعمِل السمع والبصر والفؤاد إعمالا عميقاً متأنياً يقلِّب فيه البصر ويقلِّب الرأي، ويتروّى في إصدار الحكم حتى يستكمل عناصر المشاهدة والتجربة والاختبار الحسي بصورة تتكامل معها عناصر المحاكمة العقلية، وتتضح الأدلة والبينات والبراهين.

إعمال الحس والعقل في توليد المعرفة واختبارها وتوظيفها.

وهكذا يفهم الإلحاح والإصرار في الخطاب القرآني على ضرورة النظر والرؤية الحسية والعقلية، ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ﴾ [العنكبوت: 20]، ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس: 101]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان: 45- 46]، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾[الملك: 30]، ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الروم: 50]، ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك: 3-4]

دلالات السير والنظر وعلاقاتها بعناصر المنهجية القرآنية.

وأمثال هذه الآيات كثير جداً. وحينما يذكر الخطاب القرآني بعض الظواهر التي سخرها الله للإنسان؛ أي جعلها مهيأة ليستعملها الإنسان ويستخدمها ويستفيد منها، ومن ثم ليشعر أنها من نعم الله.. عقَّب عليها ببيان المدى الذي تتسع إليه هذه النعم حتى إنّه يستحيل عدّها:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ [إبراهيم:-32 34] .

إنّ أيّ منهجية في الحصول على المعرفة لا تعتمد الواقع بأشيائه وأحداثه وظواهره فتعمل فيها المشاهدة المتأنية والمتكررة، التي تعتمد الوصف الكامل والحساب الدقيق، ومن ثم التجربة والاختبار العملي، لن تؤدي وظيفتها في الحصول على معرفة موثقة. وكذلك فإنَّ أيَّ منهجية لا تستكمل جميع البيانات ذات العلاقة بموضوع الدراسة، سواءً كانت هذه البيانات مسموعة (أو مقروءة)

من نصوص شرعية، أو مرئية مشاهدة في هذا الموضوع، كما هو في الواقع المحسوس، لن تؤدي وظيفتها في الحصول على المعرفة الموثوقة.

إنّ الوحي القرآني يرسم معالم المنهجية البحثية التي تقود إلى المعرفة الموثقة. وكما تؤكد "الآيات المسطورة" في القرآن أحكاماً قطعية في بعض المسائل، فإن هذه الآيات المسطورة نفسها تلح في طلب "الآيات المنظورة" وتتبّعها في الأنفس والآفاق، واكتشاف السنن والقوانين التي تحكم وجود الأشياء وتغيراتها وأحداثها. فلِمَ إذن لا نتحدث عن "منهجية قرآنية للبحث"، أو "منهجية للبحث" تشتق معالمها وملامحها من القرآن الكريم؟ وبقدر من التعميم نستطيع أن نتحدث عن "منهجية إسلامية في البحث: فإذا حددها الكاتب بأداة التعريف "المنهجية الإسلامية" فهي تلك المنهجية الثاوية في الخطاب القرآني بالصورة التي رآها وتلمسها ذلك الكاتب.

تمرين:
أعط ثلاثة أمثلة على التوفيق بين الآيات المسطورة والآيات المنظورة من أجل صياغة منهجية إسلامية في البحث.

وكما أنَّ القرآن هو كتاب كريم، كثير العطاء والكرم، فإنَّه يتصف بخاصية معجزة؛ إذ تتسع معانيه ودلالاتُه باتساع المعرفة الإنسانية ونموّها، لذلك سنجد تفاوتاً في الطريقة التي يفهم فيها قارئ القرآن الآيات التي تشير إلى عناصر المنهجية القرآنية في البحث أو من هجية البحث في المنظور القرآني. أو المنهجية الإسلامية، وسوف يظهر هذا التفاوت بين العلماء بمقدار ما يتفضل به الله على العالِم من فهم وبصيرة، وبمقدار ما تجمع لديه من خبرة وتجربة في السياق المكاني أو الزماني.

إن فهمنا للقرآن الكريم يبقى ناقصاً إذا لم ندرك أهمية الطرق الحسية، التجريبية ، الميدانية "الإمبريقية" في المنهجية الإسلامية للبحث، التي تعتمد السمع والبصر والحاجة إلى إجراء التجارب والاختبارات، بوصفها أساساً للوعي والإدراك الذي يقوم به الفؤاد. وقد ظهر البيان النبوي لهذا الفهم القرآني من تعليقه الحكم أحياناً، حتى تتوفر الحقائق عن القضية موضوع البحث، سواءً كان ينتظر فيها وحياً من السماء أو بيانات السمع والبصر التي تصف القضية في الواقع

الاجتماعي المحسوس. فقد كان يهُمُّ عليه الصلاة والسلام بمنع المسلمين من الغيلة؛ أي معاشرة الزوج لزوجته في الفترة التي ترضع فيها الزوجة وليدها وقبل الفطام، ظناً منه أن ذلك يؤثر على الطفل، ولا سيّما إذا حصل الحمل في أثناء الرضاع. لكنَّه لاحظ أن هذه الغيلة -وهي موضوع فيسيولوجي- لا تؤثر سلباً على أولاد الروم والفرس، لذلك فإنه لم ينه عنها. وقد ظن كذلك أن تأبير النخل من خرافات أهل المدينة، وأن الله سبحانه وتعالى يأذن أن تنعقد ثمار النخل كما تنعقد ثمار الأشجار الأخرى دون تدخل من الوسيط الإنساني، ثم تبين له بالواقع العملي أن ثمار النخل لم تنعقد عندما ترك الناس التأبير، فردّ الأمر إلى نصابه، وأكد أهمية توظيف الخبرة والتجربة العملية في هذا الشأن، وأن المسألة ليست خرافة من الخرافات، ووضّح أهمية توظيف خبرة الخبراء في هذا الشأن الدنيوي، وأنه لم يكن لديه تلك الخبرة، لأن قومه في مكة لم يكونوا أصحاب نخل، وهكذا فالناس أعلم بأمور دنياهم.

ومع تعدد وجوه النظر وأدواته في معالجة أي موضوع من موضوعات البحث تبقى الرؤية الكونية هي العامل الأساسي في طريقة تطبيق المنهج، وفي نتائج هذا التطبيق، فالمسلمون يستخدمون المنهج التاريخي مثلاً في نقد الحديث النبوي، وكذلك يفعل المستشرقون أو الماديون الذين يحاولون دراسة الحديث، وثمة فرق بين الخبرتين: الإسلامية والاستشراقية، يعود إلى الأساس الذي يعتمد عليه المنهج عند الفريقين، وهو فرق لا يمكن تجاوزه، وفي تأكيد هذا الفرق يرى "كولسون" أنه: "لا بد من الإقرار بصراحة بأنه لا يمكن التوفيق بين المنهج الإسلامي القائم على الإيمان الديني والمنهج الغربي القائم على النقد المادي للتاريخ."[1]

تمرين:

اذكر أمثلة أخرى تبيِّن فيها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان ينتظر توفر الحقائق عن قضية ما قبل أن يحكم فيها.

(1) Coulson, N. J. European Criticism of Hadith Literature. In: A. F. L. Beeston, et al (Eds.) *Arabic Literature to the End of Umyyad Period*. Cambridge: Cmbridge University Press. 1983, p. 317–321.

لقد ظهرت دلالة المنهج في العلوم الإسلامية أول ما ظهرت، نتيجة الحرص على حفظ الحديث النبوي الشريف وصيانته من الكذب والتحريف، فتطور منهج الإسناد في الرواية حتى أصبح علماً، وظهر علم أصول الحديث، وأصبح يسمى علم مصطلح الحديث، وظهرت قواعد صارمة في مجال البحث عن مدى الثقة بالرواة حتى تكامل علم الجرح والتعديل، وعلم الرجال أو علم نقد الرجال... وغير ذلك من علوم السنة النبوية. وظهرت في ذلك كتب عدَّة منها: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (توفي 327هـ)، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (463هـ) وميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (784هـ)، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني (852هـ). ومع أن معظم هذه الكتب كانت تركز على مناهج التثبت والتحقق الخاصة بالحديث النبوي، فإنها كانت تحتوي أيضاً على قواعد منهجية عامة يلزم الأخذ بها في كل العلوم، وبخاصة علم التاريخ الذي تطورت كتابته، وظهرت في المصنفات العديدة حتى جاء ابن خلدون فكانت مقدمة كتابه في التاريخ (كتاب العبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر) قواعد للتأليف المنهجي في علم التاريخ.

تطور عناصر المنهج في نشأة علم أصول الحديث النبوي الشريف.

تمرين:

ارجع إلى مقدمة ابن خلدون وحدد قواعد التأليف المنهجي في علم التاريخ، وبين الأخطاء المنهجية التي رصدها عند غيره من المؤرخين.

وظهر في وقت مبكر من تاريخ الإسلام من نبغ في العلم أكثر من غيره، فأصبح عالماً يعلّم الناس أمور دينهم، وأصبح لكل عالم منهم مرجعيته ومنهجه الأساسي الذي ربما يختلف فيه عن مناهج غيره؛ ففي حين كان مالك إمام دار الهجرة في المدينة يعلم الناس الفقه معتمداً على الحديث، فإن أبا حنيفة في

العراق قد استند إلى القليل الذي كان يعرفه من الحديث (بالقياس إلى معرفة مالك في الحديث)، وتوسع في إعمال العقل في فهم المواقف التي يلزم فيها الإفتاء، ثم جاء الإمام الشافعي فأخذ موقفاً وسطاً يجمع بين المنهجين، ووثق المنهج الذي اعتمده ودعا إليه أهل العلم في كتاب "الرسالة" وهو أساس التأليف فيما عرف بعد ذلك بعلم أصول الفقه، وهو علم منهجي بامتياز.

تمايز مناهج العلماء في استنباط الأحكام الفقهية.

وعندما أخذ المجتمع الإسلامي ينشغل بالدراسات الفلسفية والطبيعية، ودخلت العلوم المترجمة من اليونانية والفارسية وغيرها إلى الثقافة العربية الإسلامية، طرأت الحاجة إلى كتابات منهجية جديدة تضع قواعد النظر في العلوم، فاستخدم منهج الاستدلال بالقياس والبرهان المنطقي، وجرى التوسع فيه وفي تطبيقه، ولاحظ العلماء عدم كفايته فأضيف إليه الاستدلال بالاستقراء، وظهرت كتب متخصصة في تصنيف العلوم، ومناهجها العامة وتطبيقاتها في علوم دون غيرها، فكان منها: كتاب "مفاتيح العلم" للخوارزمي (387هـ) ورسالة "التوفيق على تاريخ اختصار النجاة باختصار الطريق" لابن حزم (456هـ)، وكتاب "معيار العلم" للغزالي (505هـ)، وكتاب "مناهج الأدلة في عقائد الملة" لابن رشد (595هـ)، وكتاب "المعيد في أدب المفيد والمستفيد" للعلموي (981هـ)، وكتاب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة (672هـ) و"كشاف اصطلاحات العلوم" للتهانوي، وغير ذلك كثير.

تمرين:
اختر مرجعاً واحداً من المراجع المشار إليها في الفقرة السابقة، ثم وضح الأدوات المنهجية المستخدمة لتحقيق الأهداف التي حاول المؤلف تحقيقها.

وهكذا كان لكل فئة من فئات العلماء منطقهم العلمي وأدواتهم المنهجية، فكان للمحدثين مناهجهم في علوم الرواية والدراية، وكان للمفسرين مناهجهم في الأثر والبيان اللغوي والأحكام الفقهية والتأويلات العرفانية، وكان للأصوليين

والفقهاء مناهجهم في الاستدلال بالقياس والاستقراء، وكان لعلماء الكلام مناهجهم في الجدل والحوار والمناظرة، وكان للمتصوفة مناهجهم العرفانية الذوقية. وكان للعلماء الطبيعيين مناهجهم في الاستقراء والتجريب العملي.

وقد يكون من البداهة القول بضرورة تلازم الخبرة الحسية والإدراك العقلي في بناء المعرفة الحقة عند الإنسان، ومع ذلك فإن بعض العلماء المسلمين بذلوا جهداً في التعريف بهذه البداهة، وإثباتها. فهذا الحسن بن الهيثم (430هـ) يشترط الجمع بين الحس والعقل للوصول إلى اليقين،[2] ويستشهد لذلك بكلام جالينوس، ثم هو يقوم بتشريح العين، وهي أداة الحس الأكثر أهمية عند الإنسان، ويفسر الكيفية التي تتم بها الرؤية البصرية، في بعدها المادي الفسيولوجي، وبعدها النفسي المعرفي، بما يتضمنه ذلك من ذاكرة وما يكون في موضوع الإدراك من أمارات يستدل ببعض الصورة على إدراك بقية أجزائها.

وتضرب أدبيات المناهج بالحسن بن الهيثم مثلاً على تطور المنهج العلمي التجريبي في الخبرة الإسلامية. ويؤكد ابن الهيثم أنه حذق علوم الأوائل وأنه وجد ضالته "فيما قرره أرسطوطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات، التي هي ذات الفلسفة وطبيعتها، حين بدأ بتقرير الأمور الكلية والجزئية والعامية والخاصية، ثم تلاه بتقرير الألفاظ المنطقية... ثم ذكر بعد ذلك القياس فقسَّم مقدماته وشكَّل أشكاله ونوَّع تلك الأشكال وميَّز من الأنواع ما لا يلزم دائماً نظاماً واحداً...ثم ذكر النتائج التي تلزم منها... فلما تبينتُ ذلك أفرغْت وسْعي في طلب علوم الفلسفة وهي ثلاثة علوم: رياضية وطبيعية وإلهية، فتعلقت من هذه الأمور الثلاثة بالأصول والمبادئ التي ملكت بها فروعها وتوغلت بأحكامها... وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الإيضاح والإفصاح عن غوامض هذه الأمور

(2) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم. **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق: نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د.ت.)، ص522.

الثلاثة..."[3] لكنه مع حذقه علوم الأوائل التي لم تعرف الاستقراء والتجريب العملي، فإنه لم يكتف بها، وإنما استخدم في دراساته وبحوثه في الإبصار والمناظر منهجاً وصفه في غاية الدقة والتفصيل، مما لم يعرف عند كثير نظرائه من العلماء في عصره أو العصور السابقة. يقول ابن الهيثم في وصف منهجه:

"نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلقط باستقراء ما يخص البصر في حالة الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات، والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يثلج الصدر، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، نظفر من النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات."[4]

المنهج عند الحسن ابن الهيثم في علم الطبيعة.

وهذا أبو بكر الرازي الطبيب، يشير إلى ضرورة التجربة والقياس في مداواته للمرضى، ويتحدث عن سجلات المرضى في المستشفيات، وإحصاء الحالات المتنوعة من المرض، والاستنتاج منها على الصورة التي تعرف اليوم بالدراسات الاسترجاعية retrospective studies، فيقول:

"وكم قد رصدت في البمارستان في بغداد وفي الريِّ وفي منزلي سنين كثيرة

(3) المرجع السابق، بتصرف من ص522–523. يقول ابن أبي أصيبعة في مقدمة النص المشار إليه: "ونقلت من خط ابن الهيثم في مقالة له فيما صنعه وصنّفه من علوم الأوائل إلى آخر سنة سبع عشرة وأربعمائة... قال: إنّي لم أزل منذ عهد الصبا مرتاباً في اعتقادات هذه الناس المختلفة، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي، فكنت متشككاً في جميعه، موقناً بأن الحق واحد، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه... فخضت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات... فلم أحظ من شيء منها بطائل، ولا عرفت منه للحق منهجاً ولا إلى الرأي اليقيني مسلكاً مجدداً، فرأيت أنني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية. فلم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسطوطاليس..."

(4) النشار، على سامي. **مناهج البحث عند مفكري الإسلام**، الاسكندرية: دار المعارف، ط2، 1965م، ص373.

هذه المعاني، وأثبتُّ أسماء من كان أمرُه جرىٰ علىٰ هذه الكتب، وأسماء من جرت حالته علىٰ خلاف ذلك علىٰ حدة، فلم يكن عدد من جرىٰ أمره منهم علىٰ الخلاف بأقل عدد، فينبغي أن يُطرح ولا يعنىٰ به بحكم سائر الصناعات، بل هو شيء كثير لا ينبغي لعاقل محترس أن يبتغي معه بهذه الطريقة غاية الثقة ويركن إليها ويطلق القول بتقدمة المعرفة أو يشرع بالعلاج بحسبها، وذلك أن من جرىٰ أمره علىٰ الخلاف وقد كانوا علىٰ الحافة من نحو ألفي مريض، ومن ذلك أمسكتُ علىٰ الإنذار بما هو كائن، إلا حيث كان الأمر من وضوح الدلائل وقوتها ما لم يلزمني فيه شك، وبقيت زماناً أطلب بالتجربة والقياس تدبيراً للأمراض الحادة محترساً من أن أجني علىٰ المريض الخطأ مع أني احتطت ألا تطول مدة العلة متىٰ وجدت."[5]

المنهج عند أبو بكر الرازي في ممارسة الطب.

وهكذا فإنَّ وجود المنهج في الفكر الإسلامي لا ينحصر في ميدان واحد من ميادين التراث، وإنما يمكن تتبع تمثلاته في جميع الميادين، فللتفكير المنهجي أصول ومبادئ في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ونجد تمثلاته العملية في ممارسات الصحابة والتابعين، وله تحديدات وتقعيدات في كتابات المحدثين والفقهاء والأصوليين، وله بعد ذلك تعريفات وتصنيفات أكثر تحديداً في أعمال المتكلمين والفلاسفة والصوفية والمؤرخين. ومع ذلك فإنه مما لا شك فيه أن أكثر الميادين أصالة من حيث تضمينه للمبادئ المنهجية هو ميدان أصول الفقه الذي يشتمل علىٰ مبادئ التشريع الإسلامي؛ ذلك أننا نجد: "في مبادئ التشريع وأصول الفقه تحاليل منطقية وقواعد منهجية تحمل شارة فلسفية واضحة، بل ربما وجدنا في ثناياها ما يقرب كل القرب من قواعد مناهج البحث الحديثة..."[6]

ويلاحظ أنَّ القرآن الكريم يطلب إلىٰ الإنسان أن يستخدم منهجاً معرفياً إجمالياً يؤكد الجمع بين الكون المنظور والوحي المسطور بوصفهما مصدرين للمعرفة،

(5) الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا. **كتاب الشكوك علىٰ كلام فاضل الأطباء جالينوس في الكتب التي نسبت إليه**، تحقيق وتقديم: محمد لبيب عبد الغني، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2009م، ص166–167.

(6) مدكور، إبراهيم. **في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيقه**، القاهرة: دار المعارف، ط3، 1983م، ج1، ص21.

والجمع بين استخدام العقل واستخدام الحس بوصفهما أداتين للتعامل مع كل من الكون والوحي، والجمع بين منافع الدنيا وثواب الآخرة في أهداف السعي البشري، والجمع في منهجية الوعي والسعي البشري بين مجالات التفكير العقلي والبحث العلمي والممارسة العملية.

تمرين: صمم مخططاً يبين تطور المنهجية الإسلامية في مراحلها وميادينها، مضمناً المخطط العناصر الآتية:
منهجية التلقي، منهجية الإسناد والتوثيق، منهجية الفقه، منهجية أصول الفقه، منهجية المتكلمين، تنوع المنهجية وتكاملها، منهجية البحث العلمي التجريبي، المنهجية العرفانية، الخلل المنهجي وتخلف الأمة، التبعية المنهجية وتفكك عرى الأمة، الوعي المنهجي، اكتساب الملكة المنهجية في التفكير والبحث والسلوك.

ثانياً: تطور مفهوم المنهج في الفكر الغربي

يعتمد النمط السائد في التأريخ للفكر الغربي على مبدأين أساسيين؛ الأول: هو التاريخ البشري المدوّن، مع استبعاد المصادر الدينية، والثاني: هو تاريخ الشعوب الأوروبية مع استبعاد أي أثر للشعوب الأخرى، أو التقليل من شأنها.(7) وعلى هذا الأساس فإن تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم وتاريخ الحضارة يبدأ في الغرب وينتهي فيه. فهو يبدأ من اليونان وينتهي في أوروبا الغربية وامتداداتها في أمريكا الشمالية، وبذلك ينتهي التاريخ!

وفي مناقشة المبدأ الأول، لا بد من أن نستذكر أن القليل المدون من تاريخ الحضارات البشرية، يؤكد أن الناس في جميع الأمم استعملوا عقولهم وطوروا

(7) هل هو الجهل أو الكبرياء القومية هي التي قادت عالماً وفيلسوفاً بارزاً مثل فرانسيس بيكون إلى التقليل من علوم الشعوب الأخرى وهوان قيمتها وضحالتها، حين يقرر: "كل العلوم تقريباً جاءت من الإغريق، فإضافات الرومان والعرب أو الكُتَّاب الأكثر حداثة هي قليلة وغير ذات أهمية تذكر، وما فيها يعتمد على الاكتشافات الإغريقية." انظر ذلك في:
Bacon, Francis. *The New Organon*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2000, p. 58.

العلوم والفنون، واستحدثوا التشريعات، وأقاموا منشآت لا تزال آثارها باقية، وبعضها يعد من عجائب الدنيا. وعندما جاء دور اليونانيين فإنهم وظّفوا ذلك وبنوا عليه، ولم يبدأوا من الصفر. ويؤكد يوسف كرم في تاريخه للفلسفة اليونانية أن "الأمم الشرقية قبل اليونان كان لديها نظريات تمثل رؤيتها في جميع المسائل التي صنّفت فيما بعد بأنها مسائل فلسفية، حتى إننا نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها أو أصلاً قد تكون بنيت عليه."(8)

قضية للنقاش

إذا كان استعباد المصادر الدينية من دراسة التاريخ سلوكاً معروفاً لدى المؤرخين الغربيين للفكر الإنساني، فوضح سبب ذلك أولاً ثم وضح نتيجته.

أما استبعاد المصادر الدينية فربما يكون نتيجة من نتائج الصراع الذي احتدم في القرون الوسطى الأوروبية بين العلم والكنيسة، وانتهى بانتصار العلم وعزل المرجعية الدينية عن تاريخ العلم والحكمة البشرية.

لكننا لا نستطيع أن نستبعد امتداد الهداية الإلهية وظهور الأنبياء والرسل في اليونان، كما عرفنا ظهورهم عند العبرانيين والعرب وغيرهم. فقد نص القرآن الكريم بصورة قاطعة أن جميع الأمم في جميع العصور وجميع البيئات قد حظيت برسل ينذرون أقوامهم ويبشرونهم بلسانهم ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[النساء: 165] فكيف يمكن أن يستبعد وجود الرسل في الأمة اليونانية؟! وإذا كانت مرجعيتنا في هذا اليقين هي القرآن الكريم فإن القرآن نفسه لم يقصَّ علينا قصص جميع الرسل ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: 78]

وقد أورد ابن أبي أصيبعة في كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، أن بعض الفلاسفة كان حين يعجز عن إجابة سائليه يحيلهم إلى النبيّ. وأورد في الباب الأول من الكتاب مقولات عن الأصول الإلهية والنبوية لعلم الطب وأشار

(8) كرم، يوسف. **تاريخ الفلسفة اليونانية**، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط5، 1966م، الصفحة الأولى من تصدير المؤلف للكتاب.

إلى أمثلة من التاريخ اليوناني. ونقل عن جالينوس أن أسقليبيوس، وهو أول من تكلم في شيء من الطب من اليونان الأقدمين،كان يتكلم بإلهام من الله عز وجل، "وكان الملوك من نسله تدّعي له النبوة،" كما نقل كلاماً جاء فيه: "أن أسقليبيوس كان قبل الطوفان الكبير، وكان تلميذ اغاثوذيمون المصري، وكان أغاثوذيمون أحد أنبياء اليونانيين والمصريين، ... وكان أسقليبيوس هذا هو البادئ بصناعة الطب في اليونانيين..." كما ذكر: "وبلغ من أمر اسقليبيوس أنه أبرأ المرضى الذين يئس الناس من برئهم... وزعموا أن الله تعالى رفعه إليه تكرمة له وإجلالاً، وصيّره في عداد الملائكة، ويقال إنه إدريس عليه السلام."[9] ويذكر المسعودي أن الهند كانت في القديم، وبخاصة في عهد ملكهم البرهمن الأكبر بلد العلم والحكمة، حيث تطورت صناعات الحديد والذهب، وعلوم الفلك، وعلوم العدد والحساب، وصورة العالم، ومبادئ الكون، ومنها "المبدأ الأول المعطي سائر الموجودات وجودها، الفائض عليها بجوده..." ولئن كان المسعودي يرى أن البرهمن كان ملكاً، إلا أنه أشار إلى من يرى أنه كان رسول الله عز وجل إلى الهند، ومن زعم أنه آدم عليه السلام.[10] كذلك يصف المسعودي في الكتاب نفسه زرادشت بأنه نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة.[11]

ويرجح الشيخ نديم الجسر أنّ كثيراً من جوانب الحكمة عند الأقدمين هي من آثار النبوة: "فإن هدى الله، بلسان الرسل، أقدم من اليونان وفلسفتهم؛ بل إني أرجح أن كثيراً من فلسفة الأقدمين، في مصر والصين والهند هي بقايا نبوات نسيها التاريخ، فحشر أصحابها في عداد الفلاسفة، ولعلهم من الرسل أو أتباع الرسل."[12]

ولكن من الإنصاف أن نشير إلى أنّ بعض الغربيين يعترفون بجهود الأمم والشعوب التي سبقت اليونان والإغريق في بعض جوانب الحكمة والفلسفة. فمع

(9) ابن أبي أصيبعة. **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، مرجع سابق، ص11–38.

(10) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، شرح وتقديم: مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م، ج1، ص74–84.

(11) المرجع السابق، ص236.

(12) الجسر، نديم. **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط3، 1969م، ص36.

أنَّ "هانز غادمير" لا يرى بداية ممكنة للفلسفة غير أعمال أفلاطون وأرسطو، فإنَّه يرى كذلك أنَّ هذين الفيلسوفين هما البوابتان اللتان تدفق عبرهما سيل المرحلة السابقة عليهما، ومن ثم فقد كانا مؤرخين لمرحلة ما قبل سقراط، وأنَّ الفلسفة قبل سقراط جاءت من آسيا الوسطى، وأنَّ ما يسمى الأدب الملحمي والفلسفة كان قبل سقراط ويسبق مجمل التراث المكتوب بأسره، وأن لغته هي اللغة التي كان يتكلمها الإغريق "وهي أحد الألغاز العظيمة في التاريخ الإنساني... والإغريق لم يبتكروا الكتابة الأبجدية، ولكنهم أخذوها واستكملوها في الأبجدية السامية، واستغرق هذا الأخذ مائتي عام على الأكثر."[13]

مناهج اليونان ما قبل سقراط

يشير يوسف كرم في تأريخه للفلسفة اليونانية أنَّ أقدم من عرف من اليونان هم الأيونيون، وأبرز حكمائهم طاليس (624–546 قبل الميلاد) الذي جال أنحاء الشرق وتبحر في العلوم البابلية والمصرية، واعتمد المنهج التجريبي، وحاول الاستقراء والبرهنة. ويبدو أنَّ ما كتبه الأيونيون قد ضاع ولم يصلنا منه شيء، ومصدر معرفتنا عنه هو ما رواه عنهم أفلاطون وأرسطو. والعلم الطبيعي كان مجال فكرهم واهتمامهم. إلا أنَّ هرقليطس من الأيونيين المتأخرين امتاز عن غيره بالجدل، والقول بالتناقض وصراع الأضداد، وأنَّ التغير هو حقيقة الأشياء، فلولاه لم يكن شيء، فإنَّ الاستقرار موت وعدم، وعرف أتباعه بالسفسطائيين الذين يذهبون في الشك إلى أقصى حد، ولذلك يُعدُّ هرقليطس الجدَّ الأوَّل للشكِّ في الفلسفة اليونانية.[14]

وعرف من فلاسفة اليونان قبل سقراط جماعة من الحكماء الذين تجمعوا حول معلمهم المشهور فيثاغورس (572–497 قبل الميلاد) ولذلك عرفت هذه الجماعة بالفيثاغوريين، الذين يعزى إليهم نشأة العلم الرياضي، لكنهم اشتغلوا بالإضافة إلى الرياضيات بالفلك والموسيقى والطب. واعتبروا أنَّ أهم ما يصف

(13) غادمير، هانز جورج. **بداية الفلسفة**، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، بيروت: الكتاب الجديد، 2000م، ص6.

(14) كرم، يوسف. **تاريخ الفلسفة اليونانية**، مرجع سابق، ص10–19.

هذا العالم هو النظام والتناسب، فليس العالَم إلا عدد ونغم، ومبادئ الأعداد هي عناصر الموجودات. وقالوا بكروية الأرض، وأنَّ مركز الكون هي النار المركزية وليست الأرض.[15]

وممن عرف من فلاسفة تلك الفترة ديمقريطس (470–361 قبل الميلاد) الذي أعاد التفكير بالعلم الطبيعي، وقال إنَّ الوجود هو الوجود المادي الحسي، والوجود كله ملاء، والخلاء لا وجود، وأنَّ الأجسام تتكون من ذرات مادية غاية في الدقة، وغير قابلة للانقسام، وأنَّ بين الذرات خلاء تنفذ منه أجسام أخرى، وأنَّ ذرات الأجسام في حركة دائمة تتلاقى وتفترق فيحدث بذلك الكون والفساد، وأبسط الأشياء الجوهر الفرد، أو الجزء الذي لا يتجزأ، وأنَّ الجواهر والخلاء موجودة حقاً وهي الموضوع الوحيد للمعرفة.[16]

يلاحظ أنَّ موضوع البحث قد حكم الإطار العام لمنهج التفكير والبحث في مراحل التاريخ اليوناني، فبداية البحث توجهت إلى دراسة العالَم الطبيعي كما يبدو أمام الإنسان، ولذلك فإنَّ موضوعات المادة الأساسية لهذا العالم، وأشياء الطبيعة، وما يطرأ عليها من تغيرات، كانت محور دراسات الإيليين والفيثاغوريين وهيرقليطس وغيرهم، ولذلك لا غرابة أن يكون المنهج الطبيعي هو الذي غلب على نشاط تلك المرحلة المبكرة.[17]

منهج الخطابة والجدل السوفسطائي

تمكن الأثينيون في القرن الخامس قبل الميلاد من دحر الفرس واستعادة استقلالهم، وتحقق لهم من الاسقرار ما مكن لانتشار الثقافة والتعليم، وزاد التنافس بين الأفراد والجماعات، فشاع الجدل السياسي والقضائي، ونشأت الحاجة إلى الخطابة وأساليب المحاجة واستمالة الجمهور، فاستغل بعض المثقفين مواهبهم في تطوير هذه المهارات البيانية، وعرفوا بالسفسطائيين. وأصل الاسم للواحد

(15) المرجع السابق، ص21–26.
(16) المرجع السابق، ص38–41.
(17) رابو برت، أ. س. **مبادئ الفلسفة**، ترجمة: أحمد أمين، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1971م، ص99.

منهم "سوفيسطوس"؛ أي "السفسطائي" الذي يدل على "المعلم" في أي فرع من العلوم أو الصناعات، لكنه اشتهر على معلم البيان، بالمعنى الإيجابي. وقد

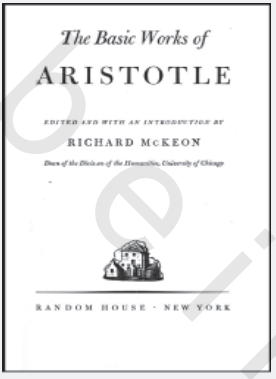

جمعت معظم أعمال أرسطو الموثوقة وترجمت إلى الإنجليزية ونشرت في مجلد واحد من 1488 صفحة، وتبدأ بكتب الأورجانون الستة، وكتاب الطبيعة، وكتاب السماء، وكتاب الخلق والفساد، وكتاب الروح، وكتب الذاكرة والأحلام والرؤيا، وكتاب تاريخ الحيوان، وكتاب أجزاء الحيوان، وكتاب خلق الحيوان، وكتاب ما وراء الطبيعة، وكتب الأخلاق، وكتاب السياسة، وكتب البلاغة، وكتاب الشعر. انظر:

- McKeon. Richard (Ed.). *The Basic Works of Aristotle*, New York: Randon House, 1941.

تخصص السفسطائيون بالجدل والمغالطة، وإيراد الحجج في مختلف المسائل والمواقف، واستعمال وسائل الإقناع والتأثير الخطابي، دون البحث عن الحقيقة. وقصروا جهودهم على النظر في الألفاظ ودلالاتها والقضايا وأنواعها، والحجج وشروطها والمغالطة وأساليبها، وتناولوا بالجدل المذاهب الفلسفية المعروفة، وعارضوا بعضها ببعض، وسخروا من العقل ومن الدين، ومجدوا القوة والغلبة.

وقد لَحِقَ معنى التحقير لهذا المنهج وأصحابه بعد أن انبرى لهم سقراط وتلاميذه. ومن أشهر السفسطائيين بروتاغوراس (480–410 قبل الميلاد) الذي نقل عنه أفلاطون قوله: إنَّ الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، وأنَّ هذه الأشياء هي ما تبدو لكل فرد، وكل شيء في تحوُّل وتغيُّر مستمر، فلا وجود للحقيقة

المطلقة، ولا وجود للخطأ.[18]

منطق أرسطو أو "الأورجانون"

ظهر عدد غير قليل من الحكماء والفلاسفة اليونان الذين بقيت آثارهم مؤثرة في الخبرة البشرية على مدار التاريخ، مثل سقراط وأفلاطون وفيثاغورس... لكنّ أرسطو (384– 322 ق.م) ربما يكون الشخصية اليونانية الأكثر نضجاً والأعمق أثراً في الفكر الغربي والفكر البشري بصورة عامة، وبخاصة من حيث علاقته بتطور مناهج النظر والبحث في الفلسفة والعلوم.

وقد شملت إسهامات أرسطو مجالات متعددة في نظريات الوجود والأخلاق والسياسة والطبيعة وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا.) وكلها تميَّزت بمنطق خاص سمِّي فيما بعد بالمنطق الأرسطي، الذي يقوم أساساً على منهج القياس. ويؤكد بعض الباحثين أن تراث أرسطو قد خضع لكثير من سوء الفهم لدى شراحه ومنتقديه، حين يبرزون ما أهمله هؤلاء الشراح من اهتمام أرسطو بالاستقراء والتجريب. ومع ذلك فإنَّ الأثر الذي تركته الدراسات الأرسطية يجعل "قراءة أرسطو تعني الفهم والوعي بأساس الفكر الغربي بأكمله."[19]

وقد جمعت كتب أرسطو الستة ذات العلاقة بالمنهج في كتاب واحد سمي "الأورجانون"، وهي كلمة تعني الآلة، أي آلة التفكير؛ كَوْن مضمون الكتاب يتعلق بآلة التفكير، أو المنهج الذي يعصم العقل من الزلل. والكتب الستة التي يشتمل عليها أورجانون أرسطو هي: المقولات categories، والعبارة on interpretation، والتحليلات الأولى prior analytics، والتحليلات الثانية post analytics، والجدل topics، نقض السفسطة on sophistical refutation.[20]

ويرى محرر أعمال أرسطو ريتشارد ميكون Richard McKeon أن "أثر

(18) كرم، يوسف. **تاريخ الفلسفة اليونانية**، مرجع سابق، ص44–49.

(19) النشار، مصطفى. **نظرية العلم الأرسطية: دراسة في منطق المعرفة العلمية عند أرسطو**، القاهرة: دار المعارف، ط2، 1995م، ص12.

(20) McKeon, Richard, (Editor) *The Basic Works of Aristotle*. New York: Randon House, 1941, p. 1–217.

أرسطو يقوم في الأساس على أنه بَدَأ سُنَّةً استمرت من أيام حياته وحتى الآن؛ ذلك أن فلسفته تحتوي على الصياغة الأولى لكثير من صور التحديد الفني والتعريف والمعتقدات التي بني عليها العلم والفلسفة في العصور التالية... ويمكن أن يقال إنَّ معظم تاريخ الحضارة في الغرب قد كتب، بل هو كتب فعلاً، على صورة جدل مع أرسطو، سواءً ذلك الجدل الذي انتصر فيه منطق أرسطو في القرن الثالث عشر، أو غُلِب فيه ذلك المنطق في فترة الأنوار، فإن ذلك الجدل هو الذي قاد إلى تقدم فكري باهر."[21]

وفيما يختص بتأثر كتاب الأورجانون الذي يتضمن المقالات الست ذات العلاقة بالمنهج ومنطق التفكير، فإنَّ عبد الرحمن بدوي لاحظ أن العرب عرفوا أرسطو بهذا الكتاب دون غيره، حتى إنهم "اعتادوا أن ينعتوه بلقب صاحب المنطق".[22]

الاستراحة الحضارية الأوروبية، وظهور الإسلام

وقد ورثت الدولة الرومانية التراث الغني لليونان والإغريق، ولكن الرومان انشغلوا بالمغامرات العسكرية داخل أوروبا وخارجها، فمرت أوروبا بمرحلة من التدهور الفكري والثقافي، وبخاصة بعد انقسامها إلى دولة رومانية غربية ودولة رومانية شرقية، ومارس الملوك في كل منهما نظماً دكتاتورية إقطاعية قاسية، ولم يخفف دخول المسيحية إلى أوروبا من الأمر شيئاً، لأنَّ الملوك والنبلاء تحالفوا مع الكنيسة، وتبنَّت الكنيسةُ المنطق الأرسطي في تفسير المراجع الدينية، وتوقفت حركة البحث والحوار العقلي. ودخلت أوروبا في سبات حضاري عميق.

وفي هذه الفترة ظهر الإسلام، وأقام مجتمعاً مستقراً شغل مناطق الحضارات القديمة في بلاد الشام والعراق وفارس ومصر. وتميّز الإسلام بتكريم العقل وطلب العلم، وضرورة التفكر في آفاق الكون، وفي سنن الله في الأشياء والأحداث والظواهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية. واستفاد علماء الإسلام من

(21) McKeon, Richard (Editor). *The Basic Works of Aristotle. from the Introduction, p. xi*

(22) أرسطو. **منطق أرسطو**، تحقيق و تقديم: عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار القلم، 1980م، ج1، ص30.

روح التحرر في البحث والكشف، ومن الاطلاع على علوم السابقين من الهند والفرس واليونان، وتُرجم معظمُ التراث اليوناني إلى العربية. وتأسست المدارس والجامعات. واستفاقت أوروبا على هذا المدِّ الحضاري، الذي وصلها عن طرق عدة منها الاتصال المباشر في أثناء الحروب الصليبية، ومنها الاتصال الثقافي في صقيلية والأندلس، فأخذت تستعيد قراءة التراث اليوناني القديم عن طريق الترجمات العربية والسريانية، ولاحظت التطوير المنهجي المتعلق بالاستقراء والتجريب، الذي قام به علماء الإسلام، ولا سيّما ما يتعلق بدراسة الطبيعة والفلك والهندسة والرياضيات، الأمر الذي كان عاملاً أساسياً في حركات التمرد والإصلاح الديني ودافعاً قوياً للعلماء في البحث والتجريب. ورغم المقاومة الشديدة التي ووجهت بها حركات الإصلاح والإحياء، في القرون الوسطى الأوروبية، إلا أنَّ المجتمعات الأوروبية شهدت منذ القرن السادس عشر، إنجازات كبيرة في الاكتشاف العلمي والتصنيع، مكنها من اكتساب صور من القوة والقدرة على الحركة، سرعان ما وظفتها في استعمار معظم العالم القديم؛ آسيا وأوروبا إضافة إلى اكتشاف أمريكا واحتلالها. وقد شهد تاريخ أوروبا عدداً من المحطات المهمة في تطور المنهج في الفكر الغربي، نختار منها جهود كل من فرنسيس بيكون، ورينيه ديكارت، وأوغست كونت، وإيميل دوركهايم، وتيارات ما بعد الحداثة.

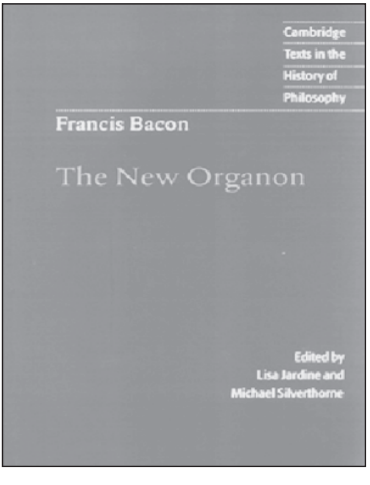

فرانسيس بيكون والأورجانون الجديد

"فرانسيس بيكون" فيلسوف إنجليزي (1561–1626م) عاش في فترة من التاريخ الأوروبي الوسيط، كانت فيها الفلسفة اليونانية القائمة على الجدل والتفكير المجرد هي السائدة؛ وهي فترة تحققت فيها اكتشافات واختراعات علمية متعددة، مثل اكتشاف

"هارفي" للدورة الدموية، وتجارب "بويل" في مضخات الهواء، وتجارب "جيلبرت" في المغناطيسية، واختراع الطباعة والبوصلة والبارود، إلخ. فكان ذلك المناخ الفكري الملتزم بقوة باستخدام الأدوات العلمية والتقانية، والتنوع الكبير في التجارب التي تجرى على الطبيعة، من العوامل التي أثرت في توجه بيكون بعيداً عن الميتافيزيقا، ونحو المعرفة العلمية التي تسهم في التحكم في الطبيعة والسيادة عليها، باستخدام المنهج العلمي القائم على التجربة العملية وحل المشكلات. وقد أخذ "بيكون" عنوان كتابه: The New Organon: or True Directions for the Interpretation of Nature من عنوان كتاب "أرسطو": The Organon: the Instrument for Rational Thinking

وشدَّد "بيكون" على ضرورة تقدُّم العلم في الوقت الذي يعجز منطق أرسطو تماماً عن ذلك في العصر الجديد. ولذلك فإنَّ "الأورجانون الجديد" يقترح نظاماً من التفكير يتجاوز أرسطو، وهو ملائم لتقدُّم المعرفة في عصر العلم. وفي حين يعتمد نظام الاستدلال عند "أرسطو" على القياس، ويستطيع أن يشتق النتائج المتسقة منطقياً مع المقدمات الأساسية، فإنَّ منطق "بيكون" صمم للبحث في المقدمات الأساسية نفسها. وفي حين يفترض منطق "أرسطو" اليقين، بالاعتماد على افتراضات غير قابلة للجدل وتعدُّ مقبولة دون أيِّ تساؤل حول صحتها، فإنَّ "بيكون" يقترح استدلالاً استقرائياً يعتمد على النظر في الأدلة الأساسية للعالم الطبيعي. وينتقل الباحث في العلوم، من بيانات أساسية يجمعها بجهد متواصل باستخدام "الأورجانون الجديد"، بطريقة تدريجية إلى مستويات أعلى من الاحتمال.[23]

وقدم "بيكون" نقداً شديداً لمنهج القياس الأرسطي الذي أدى إلى الجمود الفكري وأعاق التقدم العملي، وحدّ من حرية العلماء في البحث والإبداع. ويبدأ عمل المنطق العلمي عند "فرانسيس بيكون" بالاستقراء والتجربة العلمية

(23) Jardine, Lisa. from the Editor's Introduction to: Bacon, Francis. *The New Organon*, Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2000, p. xii.

التي تكتشف الحقائق، ثم ترد هذه الحقائق إلى مبادئ كلية بالقياس الأرسطي، وبعد ذلك يتم تدوين هذه الحقائق ونقلها إلى الآخرين بالمناهج والأساليب البيانية. ويتكون منطق "بيكون" الجديد من قسمين؛ القسم الأول: سلبي، يحلل فيه "الأوهام illusions" التي تمنع الإنسان من الوصول إلى الحقيقة، وهي أربعة أوهام: يسميها "بيكون" بالأصنام "idols" لشدة ارتباط الإنسان بها وتأثيرها عليه وهي: أصنام القبيلة، وأصنام الكهف، وأصنام السوق، وأصنام المسرح.[24] والقسم الثاني: إيجابي، وهو المنهج الجديد القادر على اكتشاف الحقائق؛ المنهج الاستقرائي والتجريب العلمي وتطبيقاته في عدد من موضوعات البحث مثل: الحرارة والحركة والضوء والروائح والقوة، وغيرها.

رينيه ديكارت وكتابه مقالة في المنهج

"رينيه ديكارت" (1596–1650م) فيلسوف فرنسي تعلَّم وتنقل في عدد من البلدان الأوروبية، في فترة كان فيها منهج القياس الارسطي سائداً على تفكير المؤسسة الدينية في أوروبا، إلى الحد الذي كانت الكنيسة تحاكم أيَّ عالم يجرؤ على التشكيك في النظريات التي اعتمدها ذلك القياس، بما في ذلك النظريات العلمية البحتة. لم يكن "ديكارت" مرتاحاً للتعليم المدرسي الأرسطي الذي تلقاه، وشعر بأنَّ المعرفة التي اكتسبها كانت تفتقد الانسجام واليقين، ولاحظ أنَّ الرياضيات وحدها من بين العلوم هي التي تتصف باليقين والفائدة والدقة، وأخذ بالتساؤل عن الكيفية التي يمكن بها أن يصل إلى علوم تتصف بالانسجام والوحدة واليقين مثل الرياضيات.

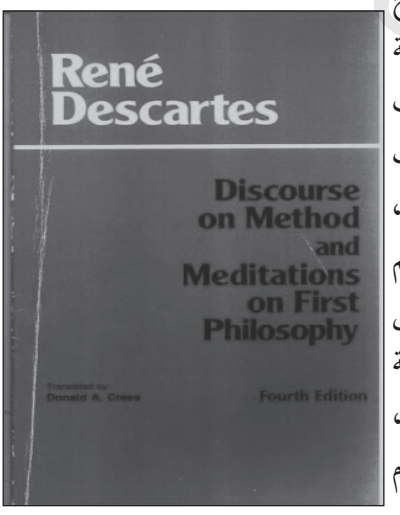

(24) Bacon, Francis. *The New Organon*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2000, p. 40.

لكن "ديكارت" كان يشعر بالعجز والإحباط من عدم قدرته على صياغة مشروع فكري جديد، يكون أساساً ثابتاً لكل العلوم. ومع رؤيته المنظمة وسعيه الحثيث فقد شعر باليأس من تحقيق رؤيته. لكنه بعد سنوات من اليأس والحيرة والحياة الصاخبة، قرر أن يتفرغ من شواغل الحياة لينجز المهمة التي تصورها، فبدأ بالتفكير والكتابة فكتب كتابه: "مقال في المنهج: قواعد لتوجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم."[25] وتضمن الكتاب ستة أجزاء؛ تناول الأول منها بعض الاعتبارات المتعلقة بالفلسفة والدين والعلوم. وتناول الجزء الثاني القواعد الرئيسة للمنهج التي حاول المؤلف صياغته. وتناول الجزء الثالث بعض قواعد الأخلاقيات المشتقة من المنهج. وكان الجزء الرابع في إثبات وجود الله والروح البشرية. واختص الجزء الخامس بأسئلة الفيزياء التي بحث المؤلف فيها، وحركة القلب وبعض قضايا الطب والفرق بين الإنسان والحيوان. أما الجزء السادس والأخير فتناول الأمور المطلوبة من أجل تحقيق التقدم في البحث في الطبيعة، والأسباب التي دعت المؤلف إلى الكتابة.

ويرى ديكارت أنَّ منهج القياس الأرسطي عقيم لا يولِّد معرفة جديدة، وأنَّ الاستقراء التجريبي الذي يعتمد على التجربة الحسية، الذي حاول فرانسيس بيكون صياغته بديلاً عن القياس الأرسطي، لا يقود إلى معارف متماسكة تتصف اليقين. والمنهج الذي انتهى إليه ديكارت يبدأ بالشك في صحة ما يعتقده الناس (وهي أوهام فحسب) بحكم ما اعتادوا عليه دون تأمل، وبحكم تقليدهم لغيرهم دون برهان، "لقد تعلمت أن لا أعتقد جازماً بأي شيء سبق أن تعلمته بالعادة ومثال الآخرين، وأخذت أحرر نفسي شيئاً فشيئاً من الأخطاء التي تطفئ "النور الفطري" وتحد من قدرتنا على الإصغاء إلى العقل."[26]

ويقوم هذا المنهج على أربع قواعد؛ أولها عدم القبول بصحة أي شيء قبل التحقق من صحته، وتجنب الحكم السريع والتحيز، والتحقق من عدم وجود

(25) Descartes, Rene. *Discourse on Method and Meditations on First Philosophy*. Translated by Donald A. Cress, Fourth Edition, Indianapolis, IN: Hachett Publishing Company Inc. 1998, from the Editor's preface, p. vii–viii,

(26) Ibid., p. 6.

أي سبب للشك في صحته. والقاعدة الثانية تتطلب تقسيم المشكلة المراد بحثها إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء لتسهيل التعامل معها. والقاعدة الثالثة تتطلب ممارسة التفكير بطريقة منظمة بالأجزاء البسيطة التي يسهل معرفتها، والتدرج في معرفة الأشياء الأكثر صعوبة. أما القاعدة الرابعة فإنها تتطلب التحقق من أنَّ الباحث لم يترك أي جزء من المشكلة لم يتم تناوله وبحثه.[27]

كونت ودوركايم وتكريس المنهج الوضعي

مع أنَّ الاكتشافات العلمية المتعلقة بالمادة والطبيعة صبغت القرن الثامن عشر والتاسع عشر إلى حدٍّ كبير، فإنَّ هذه الحقبة شهدت تطورات كبيرة في نشأة العلوم الاجتماعية والإنسانية. وقد حاول روَّاد هذه العلوم تطبيق المنهج العلمي التجريبي على العلوم الاجتماعية، واعتبروا أنَّ تطور التفكير الإنساني تَقَدَّم في النضج باتجاه المنهج العلمي التجريبي. ويعد "أوغست كونت" (1798–1857م) الذي ينسب إليه الغربيون تأسيس علم الاجتماع مُنظِّرَ المنهج الوضعي positivism، الذي يستبعد الصور السابقة للفلسفة التأملية، ويرفض أي بعد غيبي ميتافيزيقي، ويعيد على هذا الأساس تفسير التطور في التفكير الإنساني حسب قانون المراحل الثلاث: الأولى هي المرحلة اللاهوتية، وتطور فيها التفكير الديني من عبادة الصنم إلى تعدد الآلهة إلى التوحيد، ويعتمد فيها العقل الإنساني على التفسيرات الخرافية والأسطورية. والمرحلة الثانية هي المرحلة الميتافيزيقية، التي تُعدُّ أكثر نضجاً من سابقتها، والعقل فيها يلجأ إلى التفسير بدلالة قُوىً أو خصائص رمزية مجردة، لا تقبل التفسير. أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة العلمية الوضعية التي لا يتساءل فيها العقل الإنساني عن سبب حدوث الظواهر وإنَّما عن كيفية حدوثها بالاعتماد على الوصف الدقيق للوقائع "الموضوعية" والربط بين العلاقات واستخراج القوانين العلمية التي تفسر جميع الظواهر الطبيعية منها والاجتماعية.

ولا يقلُّ إسهام "إيميل دوركايم" (1858–1917م) عن إسهام "أوغست كونت" في تكريس المنهج الوضعي وبخاصة في كتابه "قواعد المنهج في علم

(27) Ibid., p. 11.

الاجتماع" الذي أكدَّ فيه أنَّ علم الاجتماع علم يخضع للمنهج الوضعي الذي تخضع له كل العلوم الأخرى. وقد صاغ دوركايم العلم الاجتماعي على ثلاثة افتراضات: أولها وحدة الطبيعة، وثانيها أن الظواهر الاجتماعية جزء من عالم الطبيعة الموضوعي الواقعي، والثالثة أن هذه الظواهر تخضع لقوانين ومبادئ طبيعية وتصلح للدراسة وفق المنهج العلمي القائم على الاستقراء والتجريب.[28]

وبطبيعة الحال فإنَّ المنهج الوضعي في الغرب لم يسلم من نقد شديد من مفكرين غربيين، من منطلقات علمية ودينية، لكنَّ هذا النقد لم يمنع من سيطرة المنهج الوضعي على معظم النشاطات الفكرية الغربية حتى منتصف القرن العشرين.

الحداثة وما بعد الحداثة

مرَّ العالم الغربي منذ عهد الأنوار وحتى منتصف القرن العشرين بحقبة من الزمن سادت فيها مجموعة من المعتقدات والأعراف والتوجهات الفكرية، أطلق عليها مصطلح الحداثة، وتميزت بالثقة المطلقة بقوى العقل الإنساني، وظهور نتائج التقدم العلمي والتكنولوجي، ومن ثم كانت العلمانية هي اللون الغالب على ثقافة المجتمع الغربي، وفقد الدين "المسيحي" ثقته بقدرته على مواجهة التحديات اليومية للعالم الحقيقي. وظهرت ثلاث صور من دين جديد: أولها الإيمان بإله خالق لا دخل له بأمور الكون الذي خلقه، وتقوى خاصة بالفرد ترافق بطريقة شيزوفرينية الاهتمام بقضايا الحياة الدنيا، وعزلة دفاعية، وفي جميع الحالات أصبح البعد الديني للحياة شديد الضعف.[29]

وقد تحولت بعض الاتجاهات والمذاهب الفكرية الحداثية إلى أطر فلسفية ورؤى كونية، انبثقت عنها مناهج بحثية، "فالعقلانية rationalism" العلمية التي تشكلت في القرن السابع عشر وأخذت دور السيادة في القرن الثامن عشر،

(28) أنور، علا مصطفى. **التفسير في العلوم الاجتماعية: دراسة في فلسفة العلوم**، القاهرة: دار الثقافة، 1988م، ص109-196.

(29) Haynes, Stephen. *Professing in the Postmodern Academy*. Waco, Texas: Baylor University Press, 2002, p. 34-35.

أزاحت الميتافيزيقا والدين تماماً، وصاغت فلسفة "وضعية positivism" "علمانية secularism"، تبشر بقدرات مطلقة للعلم والمنهج العلمي، وقدرته على تمكين الإنسان من السيطرة على الطبيعة. وأصبحت "العلموية scientism" مذهباً يمتلك خصائص المذهب الديني. وتعززت هذه المذاهب كذلك بتحول نظرية التطور العضوي إلى مذهب فلسفي، يبشر باستمرار تطور الإنسان وتقدمه في خط صاعد. وهو مذهب يبرر التعصب العرقي، ويرى في الحرب واحداً من قوانين الحياة الاجتماعية التي تصوغها القوى الطبيعية وليست إرادة الناس أو القدرة الإلهية.

لكن هذه التيارات الفكرية المتفائلة بالمستقبل، لم تغلق الباب أمام العقل الأوروبي لتيارات من نوع آخر، فقد شهد القرن الثامن عشر والتاسع عشر تيارات متشائمة رأت أن التقدم العلمي قد أسس إيديولوجية برجوازية، أفقدت الإنسان كثيراً من جوانب إنسانيته، حين أعلت من شأن العقل وأهملت الحدس والوجدان والعاطفة والشعور، فجاءت "الرومانسية romantism" ثورة ضد العقلانية، وجاءت الماركسية ثورة ضد الرأسمالية، وجاء علم النفس التحليلي القائم على اللاوعي، ثم جاء نيتشه باللاعقلانية، وجاء سارتر بالوجودية، وأظهر اشبنجلر نقداً جذرياً لروح الاعتزاز الأوروبية، مؤكداً أن الحضارة الأوروبية سوف تنهار كما انهارت الحضارات من قبل.

وقد تطورت روح التشاؤم إلى مناهج "لا علمية" تعبر عن "العلم الجديد"، بديلاً عن العلم الذي ينتسب إلى الحداثة، في تيارات ومذاهب ومناهج عدّة، يجمع بينها مسمًّى واحدٌ هو "ما بعد الحداثة"postmodernism . ومع دخولنا في عالَم ما بعد الحداثة دخلنا في مقولات أخرى، وقصص أخرى متعددة، تلتقي كلها في الاعتقاد بأن مشروع الحداثة كان يعاني من أخطاء جسيمة، فبعض روَّاد ما بعد الحداثة يركزون على الأولوية الفلسفية للعقل المتمركز حول الذات، وبعضهم يركزون على نقد النسبية الأخلاقية، وآخرون يبرزون الآثار الضارة للعقلانية،

تمرين:
صمم مخططاً يبين تطور المنهجية في الفكر الغربي في مراحله الزمنية،ومنطلقاتهالفكرية.

التي قادت التقدم العلمي والتكنولوجي. وقد عَرَفت الدوائرُ الأكاديمية في العقود الثلاثة الأخيرة حشداً من المناهج المستخدمة في بحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية على وجه الخصوص، تنتسب إلى فلسفات ما بعد الحداثة ومنها البنيوية، والتأويلية، والتفكيكية، والشكلانية، والظاهراتية، وغيرها.

ثالثاً: العلاقة بين مفهوم المنهجية وتطور المجالات العلمية في التاريخ الإسلامي والتاريخ الغربي

ارتبط مفهوم المنهجية في تاريخ الفكر الغربي بالعلوم الطبيعية أكثر من غيرها من العلوم. وارتبط هذا المفهوم في تاريخ الفكر الإسلامي بالعلوم النقلية أكثر من غيرها من العلوم. ولم يكن هذا الارتباط -في الحالتين- تعبيراً دقيقاً عن نشأة العلوم وتطورها التاريخي، وإنّما كان خللاً في عملية الرصد التاريخي، وتحيّزاً في اختيار دلالة محددة لمفهوم العلم، ومن ثم تولّدت فروق جوهرية في مرجعية العلم في نظرية المعرفة بين الرؤية الغربية والرؤية الإسلامية. فالعلم في الغرب -هو في الأساس- العلم الذي يدرس المواد الطبيعية، والمنهج الذي يستعمله العلماء هو المنهج العلمي، وبصورة أكثر تحديداً المنهج العلمي التجريبي. ولذلك يرى معظم مؤرخي العلم -في الغرب- أنَّ العلم التجريبي بدأ في أوروبا، ثم نما وتطور فيها، وانتقل منها إلى أمريكا الشمالية. وهذا العلم موضوعاً ومنهجاً هو الذي أدى إلى أن يكون الغرب هو موطن الثورة الصناعية، ثم الثورة التقانية، وأخيراً الثورة المعلوماتية. ومع ذلك فإنَّنا لا نعدم أن نجد من مؤرخي العلوم من يعترف ببعض الفضل للشعوب الأخرى، ولا سيّما في عالم الشرق، حيث ظهرت حضارات يصعب إهمال أثرها في تطور العلوم الطبيعية. لكن الحديث -حتى مع هذا الاعتراف- يبقى ضمن التأريخ للعلوم الطبيعية.

وفي المقابل فإنَّ مفهوم العلم في الرؤية الإسلامية يتعلق بتطور المدركات البشرية في سائر شؤون الحياة: المادية والاجتماعية والنفسية والروحية. ومرجعية هذه الرؤية هي الوحي الإلهي، الذي أورد فصولاً من قصة البشرية في مراحل نشأتها الأولى. وتبين هذه الفصول أنَّ الإنسان خُلق في البدء وهو مزود بما

يلزمه من ملكات التدبر والتفكر والتجريب، ومن أدوات العلم والمعرفة ما يمكّنه من بدء حياته على الأرض، ليمارس وظيفة الخلافة فيها. وقد اقتضت حكمة الله في هذا الاستخلاف أن يجتمع معه تمكين للإنسان بما خلق فيه من ملكات واستعدادات: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: 10]، وتسخير للأرض، وما فيها، وما حولها من كائنات. فالظواهر الكونية مضطردة الحدوث، والقوانين التي تخضع لها هذه الظواهر منتظمة، مما ييسِّر على الإنسان المستخلف أمر اكتشافها وتوظيفها: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 13]. وأنَّ ذلك كله بدأ فطرةً أصيلة في خلق الإنسان بالجَعْل الإلهي، ثم نما وتطور بالتوجيه والتعليم الذي كان يأتي به الأنبياء، وبتطور الخبرة البشرية في التعامل مع الأشياء والأحداث والظواهر، بسائر جوانبها المادية والاجتماعية والنفسية، مع الربط الدائم بين هذه الجوانب.

ولا شك في أنَّ واحداً من المشاهد الأولى في قصة خلق الإنسان كانت تعليمه الأسماء، وتفضيله بهذا التعليم على الملائكة، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 31]؛ وأنّ قصة الغراب مع ابن آدم كانت موقفاً تعليمياً مباشراً، في صورة عَرْض عَمَلِيّ: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ... ﴾ [المائدة: 31]؛ وأنَّ قصة بناء نوح عليه السلام للسفينة بما يتضمنه هذا العمل من مبادئ علمية، وتطبيقات عملية لهذه المبادئ، كانت موقفاً تعليماً مباشراً، تم بعين الله ووحْيه ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ... ﴾[هود: 37]؛ وأنّ الله سبحانه كان يُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض، وهو يقلِّب نظرَه ويتدبر مظاهرَ هذا الملكوت: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: 75] فهو سبحانه يُريه ويَهديه، ثم يأمرُه ببناء أوَّل بيت وضع للناس لعبادة الله في الأرض في مكة.

ونحن نشهد أنَّ الفرد الإنساني في أجيال البشرية بعد آدم، يحتاج إلى وقت طويل -نسبياً- حتى يبلغ رشده، ليكون قادراً على تحمل المسؤولية. وفي المدة

التي يقضيها الفرد الإنساني في مرحلة التعلَّم إلى أن يبلغ الرشد، فإنه يستعين بما زوده الله به من أدوات السمع والبصر والفؤاد، والقدرة على توظيف ما يستقبل -عن طريق هذه الأدوات- من بيانات ومعلومات وخبرات، لتكون موضع التدبر والتفكر. فاللغة -مثلاً- يكتسبها الإنسان بالتشرب والتدرج من البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، فيكتسب لغة تلك البيئة، لتكون وسيلته الفطرية في التواصل والتفاهم والتعايش مع الناس في بيئته الاجتماعية، ولا يستطيع أن يكتسب أي لغة بشرية لو عاش معزولاً في بيئة تخلو من التفاعل اللغوي مع البشر. والحالات التي تم توثيقها لأطفال وجدوا في مناطق معزولة عن البشر، تؤكد ذلك.[30] وثمة شواهد كثيرة تؤكد أنَّ الأطفال التوائم الذين عاشوا في بيئات مختلفة اكتسبوا لغات وعادات وأدياناً مختلفة.[31]

ولم يكن لآدم -المخلوق الإنساني الجديد- بيئةٌ تتيح له هذا التعلَّم بالتشرب والتدرج، ولم يكن طفلاً، يحتاج إلى الوقت الذي يقضيه في التهيؤ لفهم معاني الأحداث والظواهر ودلالاتها، وإنما خلق بالغاً راشداً قادراً على الفهم والإدراك، فالله سبحانه قد زوده من أجل ذلك، بما يلزمه من معرفة وعلم، تعويضاً عن غياب بيئة التنشئة والنمو المتدرج في الخبرة والتجربة؛ البيئة التي توفرها الأسرة والمجتمع. ولعلّ هذا هو طرفٌ من مدلول قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31]

ظلال الإيماء في فهم قوله تعالى: وعلم آدم الأسماء

وهكذا فإنّ النصوص الدينية التي تتحدث عن نشأة البشرية، تشهد بأنّ الإنسان منذ خلق كان مؤهلاً للعلم والتعلَّم، وكان الله سبحانه يرسل إليه الرسل والأنبياء ليواصلوا عملية التعليم والتذكير كلما نسي الإنسان أو ضلَّ السبيل. كذلك فإن المعروف والمدون من تاريخ البشرية وتطور الحضارة يشهد بذلك. هذا عن التاريخ، أما عن الوقائع المشهودة كل يوم فإنَّ الفرد الإنساني يولد

(30) Candland, Douglas K. *Feral Children and Clever Animals: Reflections on Human Nature*. New York: Oxford University Press, 1995.

(31) Segal, Nancy L. *Indivisible by Two: Lives of Extraordinary Twins*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2007.

دون أن يكون له علم أو معرفة، ثم يبدأ في وقت مبكر بعد ولادته بتسجيل خبرات السمع والبصر والفؤاد، بطريقة فطرية. ثم تنمو هذه الخبرات ويجري تنظيمها بطريقة تتصف بالإدراك والوعي، وبصورة يتميز بها المخلوق الإنساني عن الكائنات الأخرىٰ، فهو يعبر عن هذه الخبرات بنطق ولسان، ويدوِّنها بطرق متعددة من البيان، وتنتقل من فرد إلىٰ آخر، ومن جيل إلىٰ آخر، ومن أمة إلىٰ أخرىٰ، وتنمو الثقافات وتتشكل الحضارات.

وهكذا تتضافر الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، بما هو مكنون فيها من استعدادات وملكات، مع التوظيف الفطري والمكتسب لأدوات الوعي والإدراك، المتمثلة في السمع والبصر والفؤاد، في بناء مناهج للتفكير والبحث والممارسة؛ التفكير في أعماق النفس وآفاق الكون، والبحث عن إجابات الأسئلة والاستفسارات التي تملأ حياة الإنسان عن عالمه النفسي، ومحيطه الكوني، ومن ثم تُوجِّه سلوكَه وممارساته.كل ذلك يجعلنا نطمئن إلىٰ القول: إن المنهجية ليست أمراً طارئاً علىٰ فكر الإنسان وحياته، وإنما هي طبع فطري في خلق الإنسان الخليفة، وأمر عقلي يختص بالإنسان العاقل، وشأن عملي يقتضيه سلوك الحياة في كل جوانبها.

المنهجية في فكر الإنسان وحياته:
- طبع فطري.
- وأمر عقلي.
- وشأن عملي.

ولقد كانت هذه المنهجية ظاهرة مشهودة مدونة في تاريخ الإنسان في تعامله مع عوالم الأشياء والأشخاص والأفكار. وإن بقايا الحضارات القديمة في الصين، والهند، وبلاد الرافدين، ومصر الفرعونية، وأمريكا الجنوبية، تشهد بتطور ملحوظ في الرياضيات والهندسة والفلك، ونظم البناء والزراعة والطب والتعدين، وصناعة الأدوات والمواد اللازمة للرصد والحساب والتوقيت، والتطبيب، والحفر، والرسم، وغير ذلك مما يستطيع رواد المتاحف التاريخية أن يتعرفوا عليه.

قصدنا من الربط بين مفهوم المنهجية وتطور العلوم في مجالاتها المختلفة، تأكيد أنَّ سعي الإنسان في حياته سعي عام يصعب التمييز فيه بين مجال طبيعي مادي، وآخر اجتماعي إنساني، وثالث روحي وجداني؛ فالفرد البشري مجموع كلي، يتكامل فيه العقل والروح والجسد، والجماعة البشرية تتكامل فيها علاقات التعارف والتعاون بين الأسر والقبائل والشعوب، والمجتمعات والدول، لتوفير متطلبات الحياة من طعام وكساء وبناء، ونشأت من أجل ذلك أدوات للزراعة والصناعة والتجارة وسبل النقل والاتصال، كانت تتطور من عصر إلى آخر، وتتكامل فيها جهود العلماء من مختلف التخصصات، وقد تتلون مناهجهم بلون تخصصاتهم، وقد تتميّز أمة من الأمم، في عصر من العصور، في مجال معرفي معين أكثر من تميّزها في المجالات الأخرى.

ونحن في هذا السياق لسنا معنيين بالقول: إنَّ المنهجية كانت متطورة ومدوَّنة بالصورة التي نعرفها اليوم، أو أنها نشأت في منطقة دون أخرى، ولكننا معنيون بالتأكيد أن المنهجية ليست أمراً طارئاً على حياة الناس في حضارتهم المعاصرة، أو أنها صناعة شعب محدد أو عصر محدد، وإن كنّا لا ننكر على أي شعب حقّه في أن يبحث في تاريخه عن إسهاماته في تطور العلم والحضارة، ويعتزّ بها، شريطه أن لا ينكر على الشعوب الأخرى فضلها وإسهاماتها.

خاتمة

لا شك في أنَّ أيَّ كشف سوف يقود إلى ما بعده، فيعتمد اللاحق على السابق. ولا شك في أنَّ كل التجارب حتى السلبية منها لها قيمتها في توجيه فكر الإنسان إلى ما هو أكثر نفعاً، وأقرب إلى تحقيق هدفه الذي يسعي إليه.

لكنَّ تاريخ الإنسان تاريخ متقلب صعوداً وهبوطاً، وحضاراته متنقلة من مكان إلى آخر ومن أمة إلى أخرى. ومع أن عناية الله سبحانه كانت تدرك الإنسان بالرسل والأنبياء، يعلمونهم سبل الهدى، ويردونهم عن مهاوي الردى، فإن الناس كانوا سرعان ما ينسون، فيضلوا السبيل. فبعد أن يقود النبي قومه إلى عبادة الله الحق، وإقامة المجتمع على مبادئ العدل والخير، تراهم يرسمون الأنبياء وينحتون

لهم أصناماً، تذكرهم بفضل الأنبياء عليهم، ثم ينسون النبي، ويبقى الصنم! وربما ترشدهم عقولهم إلى عجز الصنم وسخف عبادته بحثاً عن الإله الذي افتقدوه في فترة من الرسل، فلا يتحرجون أن يرمزوا إليه بكوكب أو نهر أو بقرة!

وإذا كانت طقوس السحر من مظاهر المرحلة الأسطورية والميتافيزيقية، فما بال أقوام لا يزالون يؤمنون به ويمارسونه، ويوظفون له وسائل القرن الحادي والعشرين من فضائيات ومواقع إلكترونية وصحف ومنتديات.

لا شك في أن شعوب العالم لم تسلك الطريق نفسها في مجتمعاتها المختلفة وبيئاتها المتنوعة، بل إنك لتجد المجتمع الواحد أفراداً أو فئات أو طبقات يمارس منهجاً في التفكير، في الوقت الذي يمارس فيه غيره مناهج أخرى. كما تجد الفرد الواحد حتى في المجتمع الحديث يمارس مهنته بطريقة علمية منظمة، ثم إذا خرج من عمل المهنة، وعاد إلى منزله، إذا به يؤمن بالخرافات الميتافيزيقية السائدة في مجتمعه!

وأصل المعرفة البشرية هبة ومنحة من الله سبحانه، ميز بها الإنسان عن المخلوقات الأخرى، فعلم آدم الأسماء كلها، وأعطاه مفاتيح المعرفة وأدواتها، وهيأه لاكتسابها من مصدريها: الوحي والكون، وبأداتيها: العقل والحس. وليس صحيحاً ما يكتبه بعض المؤلفين من أن مناهج البحث قد تطورت من مرحلة إلى أخرى بصورة خطية صاعدة، وإنما الصحيح أن الإنسان كان في كل مرحلة يستخدم طرقاً متعددة وأساليب متنوعة في اكتساب المعرفة وتحصيلها. فابن آدم الأول الذي تلقى شيئاً من المعرفة مباشرة عن أبيه آدم الذي تلقاها عن الله سبحانه، عندما قتل أخاه لم يدر ما يصنع به، فكان سلوك الغراب أمامه أنموذجاً تعليمياً دعاه إلى أن يتصرف بما يلزمه في ذلك الموقف، ثم أن يقول لنفسه متحسراً: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ [المائدة: 31]

ولا شك في أنَّ الأمم توظِّف ما يكون متاحاً لها من المعرفة، بمقدار ما تتصف به من تقدم أو تخلف، فالأمم في حال تخلفها لا تدرك قيمة ما تملكه من تراث حضاري، فتعجز عن توظيفه لصالحها، هكذا كانت أوروبا في قرون تخلفها بعد انهيار الدولة الرومانية الغربية والشرقية، فلم تدرك قيمة التراث

اليوناني الغني في الطب والرياضيات والفلسفة والهندسة والأدب والشعر. وعندما كان المسلمون في حالة نهوض حضاري، أدركوا قيمة ما كان بأيديهم وأيدي غيرهم من الأوروبيين والهنود وغيرهم، فأسرعوا في النقل والترجمة، ونخلوا العلوم وكشفوا عنها وحققوها فقبلوا منها ورفضوا وطوروا وحدثوا. وقد عجز المسلمون حين تخلفوا عن توظيف ما في أيديهم من تراثهم، ولم يقدورا قيمة الإنجازات التي حققها علماؤهم حق قدرها. فلما دالت الأيام ونهضت أوروبا وجدت أن المسلمين قد أهدوا إلى البشرية ما كان بأيديهم من تراث اليونان، واكتشفوا كذلك ما كان المسلمون قد طوروه وأنجزوه مِنْ سَبْق في مجالات العلوم المختلفة، في الوقت الذي عجز المسلمون عن توظيف كل ذلك نتيجة لتخلفهم.

وليس غريباً أن نجد الآن أنَّ بعض إنجازات المسلمين عرفناها بعد أن كشف لنا الغربيون عنه. ومن هؤلاء ابن الهيثم الذي عرف له أكثر من مائتي كتاب في مجالات العلوم المختلفة، فضلاً عن صياغته الدقيقة للمنهج العلمي التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة والبرهان. ومنهم أيضاً ابن خلدون الذي عُرِف عنه السبق في كثير من مفاتيح العلوم الاجتماعية في السياسة والاقتصاد والعمران والتربية وعلم النفس، فضلاً عن أن إسهامه الأكبر في منهج البحث والتفكير يتعلق بتأكيده أهمية الخبرة العملية الواقعية (الإمبريقية) التي تتمثل في فهم طبائع الأشياء والسنن الاجتماعية وقواعد السببية.

في مجال المقارنة بين الخبرة التاريخية الإسلامية في نقد الحديث النبوي، وخبرة المستشرقين الذين حاولوا دراسة الحديث، أبرز "كولسون" أن الفرق الأساسي في الخبرتين يعود إلى المنهج وأن الاختلاف في هذا المنهج يتعلق بالأساس الذي يعتمد عليه كل منهما، وهو اختلاف لا يمكن تجاوزه. لذلك فقد كتب يقول: "لا بد من الإقرار بصراحة بأنه لا يمكن التوفيق بين المنهج الإسلامي القائم على الإيمان الديني والمنهج الغربي القائم على النقد المادي للتاريخ."[32]

(32) Coulson, N. J. European Criticism of Hadith Literature. In: A. F. L. Beeston, et al (Eds.) *Arabic Literature to the End of Umyyad Period*. Cambridge: Cmbridge University Press. 1983, p. 317–321.